من قلب الانتفاضة أصواتٌ فلسطينيَّة مناضلةٌ ومبدعة، تشارك في النقد لمصلحة الانتفاضة والقضيَّة والخير. لا تَخْشى التشكيك لأنّ حاضرها وماضيها ناصعان، ولأنَّها تَحْرص على المستقبل. والمجلة تَسْتكمل هذه الأصوات في العدد القادم.

أصوات من فلسطين الجديدة (١)

تصحير الزهر*

عمر برغوتي**
ترجمة سماح ادريس

لوهلةٍ حاولتُ أن أَهْرب من الأخبار التي ما انفكّت تنتابني عن لعبة الصيد التي يمارسها الجنودُ بحقّ الأطفال الفلسطينيِّين، أو عن عائلة ثكلى جديدة تودِّع أحدَ أحبّائها الوداعَ الأخير. فقررتُ أن أذهب لزيارة قريتي الوادعة، «دير غسّانة،» شماليَّ رام اللّه. ولكنَّ خطّة هروبي فشلتْ فشلاً ذريعًا، لأنَّ الأخبار المثيرة للغضب لاحقتني.

فعلى الطريق روّعني مشهدُ شجرات زيتون «رومانيَّة» هرمةٍ لا حَصْرَ لها، مفصولةً بالمنشار عن جذوعها ومتروكةً لموتها، على التربة المحمرّة التي تَنْظر لا حول لها ولا قوّة نظرةً محدِّقةً لا حياة فيها. كنتُ أعلم كم هي عزيزةٌ تلك الشجرات على قلوب أصحابها؛ فغالبًا ما تتكلّم عمتي البالغةُ من العمر اثنيْن وثمانين عامًا ـ برهبة بل وتبجيلٍ ـ عن «رومانيّاتها،» وبعضُها يعود إلى زمن احتلال الصليبيِّين لفلسطين. هذه الشجرات ليست كسائر شجرات الزيتون المزروعة حديثًا؛ فجذوعُها متغضِّنةٌ بأخاديد متموِّجةٍ تعانق في ثناياها تاريخَ المكان كلَّه، كأنَّها وجهُ بحّارٍ قديم: وجهٌ يحكي عن لقاءاتِه التي يصارع فيها الموجَ، وعن الأزرق الذي لا نهاية له، وعن السيل الذي يتدفّق بين الفيْنة والفيْنة بالدمع والبركات. وكنتُ أعلمُ أنَّه لو قَطَعَ أحدٌ زيتونةً من زيتونات عمّتي الثمينة لنَدَبَتْها بحزنٍ بالغ.

وبينما كنتُ أحدِّق إلى مجزرة الأشجار بحدّةٍ قلتُ لنفسي: «الأشجار لا يُمْكن أن تكون أكثرَ قيمةً من البشر الذين يتساقطون كلَّ يوم. فلِمَ أشعر بمثل هذا العذاب، وكأنّي أمشي في واحدةٍ من تلك الجنازات الكثيرة التي مشيتُ فيها، هناك في رام اللّه، خلال الشهور القليلة؟» ثم قلتُ: «صحيح أنَّ البشر يستطيعون أن يعيدوا زَرْعَ الأشجار، ولكنَّهم لا يستطيعون زرعَ تلك التي عمرُها مئاتِ السنوات. إنّ قتل هذه الشجرات أشبهُ بإحراق كتاب قديم؛ إنَّه عملٌ شائن وبربريّ ويفتِّتُ القلوب.»

وإذ حاولتُ أن أضع الأمور في نصابها تذكَّرتُ تقريرًا أصدرتْه مؤخّرًا إحدى منظّمات الأمم المتحدة يُثْبت أنَّ الجنود والمستوطنين الإسرائيليِّين قد قَطَعوا عشراتِ الآلاف من الشجر منذ بدء الانتفاضة الأخيرة. وهكذا يبدو أنَّ غرائز القتل المنْفلتة من عقالها لدى الجنود والمستوطنين الإسرائيليِّين فاضتْ عن كل حدٍّ؛ فهم لم يعودوا يكتفون بارتكاب المجازر البطيئة ضدّ الفلسطينيِّين بل راحوا يَهْدفون إلى إفناء كلّ شاهدٍ على جذورنا في هذه الأرض، نافين بذلك حقَّنا كأمَّةٍ في المستقبل. إنَّهم لا يقفون عند حدِّ تدميرِ قبورِ أسلافنا، أو تحويلِ جوامعنا وكنائسِنا العتيقةِ معابدَ لهم أو مقاهيَ أو أيِّ شيء آخر مادام غيرَ عربيّ، بل يَسْخطون على العجائب الخضراء المُورقة التي

---

* ـ عنوانُ هذه القطعة، كما قد لا يخفى، هو قلبٌ للمقولة الصهيونيَّة الشهيرة التي تَزعم أنَّ الصهاينة سيَجْعلون «الصحراءَ تُزْهر» Make the desert bloom. وهذه القطعة أُرسلتْ بالإنجليزيّة عبر الانترنت. (المترجم)

** ـ طالبٌ دكتوراه فلسطينيّ في مادة الفلسفة من «جامعة تل أبيب» في فلسطين المحتلّة. يقيم في رام اللّه، وهو مدرِّبٌ «فرقة الفنون الشعبيّة الفلسطينيّة.»

أبدعتْها ـ بكدٍّ وعناءٍ ـ أجيالُنا المتعاقبةُ على تلالِ فلسطين ووديانِها: من بساتينَ، وغياضٍ، وأشجارِ زيتونٍ مميّزةٍ داكنةِ الخضْرة، وصبّارٍ فخورٍ عنيد.

إنّ الصهاينةَ ليُضْمِرون حقدًا مقيمًا على شجرات الصبّار تلك بنوعٍ خاص. فمنذ أن زيَّنَ الفلاّحون الفلسطينيُّون أراضيَهم بالصبّار غدَتْ هذه الشجراتُ الشائكةُ المنيعةُ «موتيفًا» مدهشًا للمناظر الطبيعيَّة الرعويّة على امتداد فلسطين. ذلك أنّها كانت الحدودَ الطبيعيَّة للمنازل أو للأرض، بل وللقرى والدساكر أيضًا. ولهذا استُهدفتْ على الفور بالاستئصال، لكونها من بين قلائل بَقُوا شاهدين على الحضارة التي ازدهرتْ يومًا، وعلى الأرض التي كانت فيما مضى خَصْبةً ومغذِّية. ولعلّ مستوطني اليوم يحاولون أن يَبْعثواالذكريات التي لم تُنْسَ لما فعله أسلافُهم في حملتهم الأولى.

ويَظْهر أنّ معظمَ الإسرائيليّين لا يعانون فقدانَ ذاكرةٍ انتقائيّاً مُزْمنًا فحسب، بل يعانون أيضًا عمًى جزئيّاً جَنَوْه على أنفسهم. فلا بدّ أن يكون المستوطنون اليهودُ الأوائلُ الذين وطئوا أرضَ فلسطين قد صُعِقوا لرويةِ ما سمّاه الشاعرُ الإنكليزيُّ في القرن السابع عشر جورج ساندِيز «أرضًا تَفيض لبنًا وعسلاً... مزيَّنةً بجبال جميلة ووديان مُتْرفة.»(١) ولكنّهم لا ريب أنّهم لاحظوا أيضًا شجراتِ الصبّار اللافتةَ، التي ظنُّوا ـ بعقولهم الأوروبيّة ـ أنّها لا تَنْبت إلاّ في الصحراء. ولهذا طَرَدوا من وعيهم كُلَّ ما سوى تلك الشجرات، ولقَّبوا أرضَنا بالصحراء أو بالأرض العاقر التائقة إلى «أيدٍ متحضّرةٍ بيضاء» تَحْرثها وتُزْهرُها.

لكنّ شجرَنا أفْسَدَ أسطورتَهم عن الصحراء. فقد راح زيتُونُنا الطاغي الحضورِ يَحْكي التاريخَ الطويلَ الثابت لجذورنا الضاربة في أعماق الأرض. وجعل صبّارُنا يكْشف الحكاياتِ التي لم تُرْوَ أبدًا، والجرائمَ التي دُفنتْ تحت الأنقاض، والمئاتِ من القرى التي مُحِيتْ قبل ٥٣ سنةً. لم تكن تلك «المخلوقاتُ» الخضراءُ، إذنْ، متفرِّجاتٍ بريئاتٍ؛ بل هنَّ قاومن ـ بسلبيَّةٍ ولكنْ بضراوة ـ استعمارَ عقولنا وطمسَ ذاكرتنا. ولهذا كان على الأعداء أن يهزموهنّ: كان عليهم أن يقتلعوهنّ.

غير أنّ محاولاتهم استئصالَ الصبّار مِنَ الأرض ومِنْ ذاكرتهم ذهبتْ أدراج الرياح: فقد عاد الصُّبّارُ إلى نموِّه وإيناعه. وحين يفهمون خصيصةَ الصبّار الإعجازيَّة تلك فسيبدأون فكَّ الشيفرات المعقَّدة لذاكرتنا الجمعيَّة الخصبة، ولصمودنا «الذي يَعْصى على التفسير،» ولرحلةِ بحثنا عن القيَم.

إنّ الصبّار يعود إلى الحياة، ولكنّ الزيتون ـ مثلَ أرواح البشر ـ لا يعود. وهذه الفكرةُ البسيطة، التي تملَّكتني رغم بساطتها، قادت محاولتي للهروب عقليّاً ممّا كان يجري في الشارع من قتلٍ وموجهات إلى خلاصة مفاجئة وقاسية: وهي أنّ على العقول والأيدي التي تصحِّر الزهرَ أن تُوقَفَ، وعلى تصحيرِ العقل أن يُمنع من الانتشار.

رام الله

الهـــــــدف

د. كرميلا آرمانيوس عمري❖

أثناء الانتفاضة الأولى كنتُ أشاهد التلفاز مع ابنتي (وكان عمرُها آنذاك حوالى ٧ سنوات) وهو يعرض جنازةَ امرأةٍ إسرائيليَّة قُتلتْ في إحدى العمليّات الفدائيَّة. كان زوجُ القتيلة وأبناؤها يبكون في وداعها. ولكنّ ابنتي حاولتْ ألاّ تتأثّر بحزنهم ودموعهم وقالت: «يجب أن نَقْتل الإسرائيليّين انتقامًا لقتلهم لنا، ولكيْ يذوقوا العذابَ الذي نذوقُه عندما نودِّع شهداءنا. فهم المسؤولون عن مأساتنا، ويجب أن يدفعوا الثمن.»

لم أتمكّن من التعامل مع هذه الحادثة. فمن ناحية، أعْلم أنّ ابنتي تأثَّرتْ بالأعمال الوحشيَّة التي قام بها الاحتلالُ الإسرائيليّ: من قتلٍ للأبرياء، وهدمٍ للبيوت، ومصادرةٍ للأراضي، واعتقالٍ للمواطنين. ولكنّي، من ناحية ثانية، لم أكن أرغب في أن يؤدِّي كلُّ هذا إلى أن تَفْقد ابنتي إنسانيَّتَها. أردتُ أن أقول لها في حينه: «إنَّ المنظر الذي نشاهده محزنٌ فعلاً، وليس من الخطإ أن نَشْعر بحزن عند قَتْل العدو، وإنَّ علينا أن نغضب مِنْ كلِّ مَنْ ساهم في أن يضطرنا للقتل للدفاع عن أنفسنا. ولكنَّ القتل أو الانتقام ليس هو الهدف، بل نحن مضطرُّون إليه كي ندافع عن أنفسنا.» ولكنّي لم أفعل!

خلال الانتفاضة الأولى كنتُ أشاهد صورَ الشهداء يَحْملون البنادق، وكنتُ أشاهد شبابنا يتباهَوْن بسلاحهم، وكانت جميعُ الأحزاب السياسيَّة والأغاني تُشيد بحمل السلاح وببطولة كلّ مَنْ يمتشق السلاح. أنا لا أُنْكر ضرورةَ الإشادة ببطولةِ كلِّ مَنْ يُقدّم حياته في سبيل تحرير الوطن، ولكنّ هناك خطرًا من وقوع التباسٍ بين الهدف والوسيلة: فالهدف هو تحرير فلسطين، وحملُ السلاح هو وسيلةٌ للوصول إلى هذا الهدف.

قبل شهور سمعتُ عن امرأة فلسطينيَّة وَقَعَ ابنُها شهيدًا برصاص الاحتلال الإسرائيليّ. امتنعت المرأةُ عن البكاء لأنّ

١ ـ Edward Said, **The Question of Palestine** (New York: Time Books), 1980, p.11.

❖ ـ نائبة رئيس جامعة بيرزيت للشؤون الإداريَّة والماليَّة منذ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٩. حازت دكتوراه في الرياضيَّات من جامعة غرب أستراليا (١٩٨٠)، ودرّستْ هذه المادة في جامعة بيرزيت بين عامَيْ ١٩٩٣ و ١٩٩٩. وُلدتْ في حيفا، وتحمل جوازيْ سفر «إسرائيليّاً» وأوستراليّاً، وتعيش في رام الله.